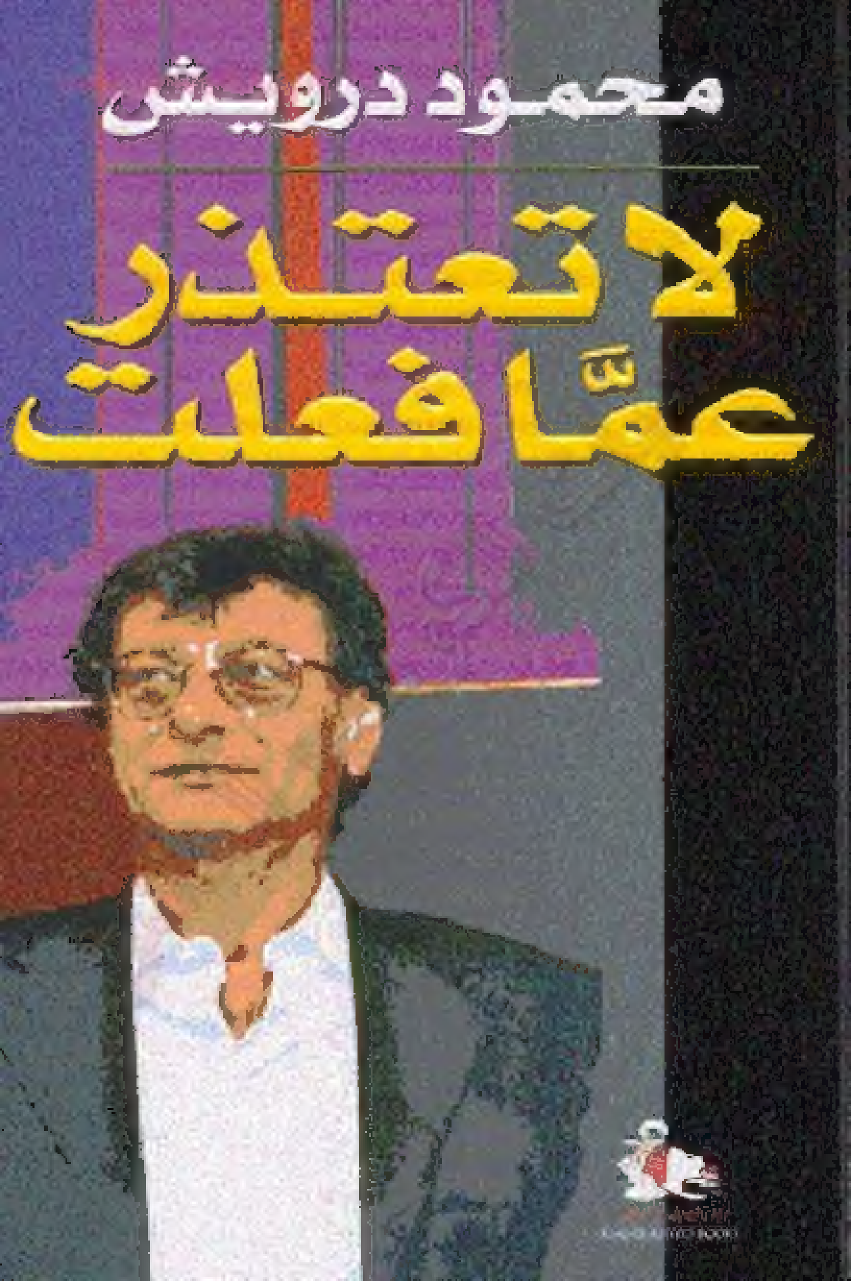

محمود درويش
لا تعتذر
عمّا فعلت

لا تعتذر عما فعلت

محمود درويش

لا تعتذر عما فعلت

القصائد

توارد خواطر، أو توارد مصائر:

لا أنتِ أنتِ

ولا الديارُ ديارُ

[أبو تمام]

والآن، لا أنا أنا

ولا البيتُ بيتي

[لوركا]

I

في شهوة الإيقاع

1

يختارني الإيقاع

يَخْتَارُني الإيقاعُ، يَشْرَقُ بي

أنا رَجْعُ الكمانِ، ولستُ عازِفَهُ

أنا في حضرةِ الذكرى

صدى الأشياءِ تنطقُ بي

فأنطقُ ...

كُلَّما أصغيتُ للحَجَرِ استمعتُ إلى

هديلِ يَمَامَةٍ بيضاءَ

تشهَقُ بي:

أخي! أنا أُختُكَ الصُّغْرى،

فأذرفُ باسمها دَمْعَ الكلامِ

وكُلَّما أبصرتُ جِذْعَ الزَّنْزَلَخْتِ

على الطريقِ إلى الغمامِ،

سمعتُ قلبَ الأمِّ

يخفقُ بي:

أنا امرأةٌ مُطَلَّقَةٌ،

فألعن باسمها زيزَ الظلام

وكُلَّما شاهَدْتُ مرآةً على نهرٍ

رأيتُ الحبَّ شيطاناً

يُحَمْلِقُ بي:

أنا ما زلتُ موجوداً

ولكن لن تعود كما تركتُكَ

لن تعودَ، ولن أعودَ

فيكملُ الإيقاعُ دَوْرَتَهُ

ويُشْرِقُ بي ..

2

في حكمة المحكوم بالإعدام

لِيَ حِكْمَةُ المحكوم بالإعدامِ:
لا أشياءَ أملكُها لتملكني،
كتبتُ وصيَّتي بدمي:
«ثِقُوا بالماء يا سُكَّانَ أغنيتي!»
وَنِمْتُ مُضَرَّجاً ومُتَوَّجاً بغدي...
حَلِمْتُ بأنَّ قلب الأرض أكبرُ
من خريطتها،
وأَوضحُ من مراياها وَمِشْنَقتي
وَهِمْتُ بغيمةٍ بيضاءَ تأخذني
إلى أَعلى
كأني هُدْهُدٌ، والريحُ أَجنحتي.
وعند الفجر، أيقظني

نداءُ الحارس الليليّ
من شُغْلي ومن لغتي:
ستحيا ميتةً أخرى،
فعدِّلْ في وصيّتك الأخيرةِ،
قد تأجّل موعدُ الإعدام ثانيةً
سألت: إلى متى؟
قال: انتظر لتموت أكثرَ
قلتُ: لا أشياء أملكها لتملكني
كتبتُ وصيّتي بدمي:
«ثِقوا بالماء
يا سُكّان أغنيتي!»

3

سيجيء يوم آخر

سيجيءُ يَوْمٌ آخَرٌ، يومٌ نسائيٌّ
شفيفُ الاستعارةِ، كاملُ التكوينِ،
ماسيٌّ زفافيُّ الزيارةِ، مُشْمِسٌ،
سَلِسٌ، خَفيفُ الظلِّ. لا أحدٌ يُحِسُّ
برغبةٍ في الانتحارِ أو الرحيلِ. فكُلُّ
شيءٍ، خارجَ الماضي، طبيعيٌّ حقيقيٌّ،
رديفُ صفاته الأولى. كأنَّ الوقتَ
يرقدُ في إجازته. . وأطيلي وقت زينتك
الجميلَ، تشمَّسي في شمسِ نَهْدَيْكِ الحريريْنِ،
وانتظري البشارة ريثما تأتي. ومن ما
بعد نُكبرُ. عندنا وقتٌ إضافيٌّ
لنكبر بعد هذا اليوم...»/

سوف يجيء يومٌ آخرُ، يومٌ نسائيٌ
غنائيُ الإشارة، لازورديُّ التحيةِ
والعبارة. كُلُّ شيء أُنثويٌّ خارج
الماضي. يَسيلُ الماءُ من ضرع الحجارةِ.
لا غُبَارَ، ولا جَفَافَ، ولا خسارةَ.
والحمامُ ينامُ بعد الظهر في دبّابة
مهجورةٍ إنْ لم يجد عُشّاً صغيراً
في سرير العاشِقَيْن ...

4

وأنا، وإن كنت الأخير

وأنا، وإن كُنْتُ الأخيرَ،
وَجَدْتُ ما يكفي من الكلماتِ ...
كُلُّ قصيدةٍ رَسْمٌ
سأرسم للسنونو الآنَ خارطةَ الربيعِ
وللمشاةِ على الرصيفِ الزيزفونَ
وللنساءِ اللازوردَ ...
وأنا سيحملني الطريقُ
وسوف أحملُهُ على كتفي
إلى أنْ يستعيدَ الشيءُ صورتَهُ،
كما هيَ،
واسمَهُ الأَصليَّ في ما بعدُ/

كُلُّ قصيدة أُمٌّ
تفتِّشُ للسحابة عن أَخيها
قُرْبَ بئر الماءِ:
«يا وَلَدي! سأُعطيك البديلَ
فإنني حُبْلى ...»
وكُلُّ قصيدة حُلْمٌ:
«حلمتُ بأنَّ لي حُلْماً
سيحملني وأحملُهُ
إلى أن أكتب السطرَ الأخيرَ
على رخام القبرِ:
نِمْتُ ... لكي أطيرَ»

- وسوف أحمل للمسيح حذاءَهُ الشتويَّ
كي يمشي، كَكُلِّ الناس،
من أعلى الجبال ... إلى البحيرةْ

5

في بيت أُمّي

في بيت أُمّي صورتي ترنو إليّ

ولا تكفُّ عن السؤالِ

أأنت، يا ضيفي، أنا؟

هل كنتَ في العشرينَ من عُمْري،

بلا نظّارةٍ طبيّةٍ،

وبلا حقائبَ؟

كانَ ثُقْبٌ في جدار السور يكفي

كي تعلّمكَ النجومُ هوايةَ التحديقِ

في الأبديّ ...

[ما الأبديّ؟ قُلْتُ مخاطباً نفسي]

ويا ضيفي ... أأنتَ أنا كما كنّا؟

فَمَنْ منّا تنصَّلَ من ملامحِهِ؟

أتذكُرُ حافرَ الفَرَسِ الحرونِ على جبينكَ
أم مَسَحْتَ الجرحَ بالمكياجِ كي تبدو
وسيمَ الشكلِ في الكاميرا؟
أأنتَ أنا؟ أتذكُرُ قلبَكَ المثقوبَ
بالنايِ القديمِ وريشةِ العنقاءِ؟
أم غيَّرتَ قلبَكَ عندما غيَّرتَ دَرْبَكَ؟

قلتُ: يا هذا، أنا هُوَ أنتَ
لكنّي قفزتُ عن الجدارِ لكي أرى
ماذا سيحدثُ لو رآني الغيبُ أقطِفُ
من حدائقِهِ المُعَلَّقةِ البنفسجَ باحترامٍ...
رُبّما ألقى السلامَ، وقال لي:
عُدْ سالماً..
وقفزتُ عن هذا الجدارِ لكي أرى
ما لا يُرى
وأقيسَ عُمْقَ الهاويةْ

6

لا تعتذر عمّا فعلت

لا تعتذرْ عمَّا فعلْتَ ـ أقول في
سرّي. أقول لآخَري الشخصيِّ
ها هِيَ ذكرياتُكَ كُلُّها مرئيّةٌ:
ضَجَرُ الظهيرة في نُعَاسِ القطِّ/
عُرْفُ الديكِ/
عطرُ المريميّةِ/
قهوةُ الأُمِّ/
الحصيرةُ والوسائدُ/
بابُ غرفتِكَ الحديديُّ/
الذبابةُ حول سقراطَ/
السحابةُ فوق أفلاطونَ/
ديوانُ الحماسةِ/

صورةُ الأبِ/

مُعجم البلدانِ/

شيكسبير/

«الأشقّاءُ الثلاثةُ، والشقيقاتُ الثلاثُ،

وأَصدقاؤك في الطفولة، والفضوليّون:

«من هذا هُوَ؟» اختلف الشهودُ

لعلَّه، وكأنه. فسألتُ «مَنْ هُوَ؟»

لم يُجيبوني. همستُ لآخري: «أَهو

الذي قد كان أنتَ .. أنا؟» فغضَّ

الطرفَ. والتفتوا إلى أُمّي لتشهد

أَنّي هُوَ ... فاستعدَّتْ للغناء على

طريقتها: أنا الأمُّ التي ولدتْهُ،

لكنَّ الرياحَ هِيَ التي ربَّتْهُ.

قلتُ لآخري. لا تعتذر إلاَّ لأمِّكْ!

7

في مثل هذا اليوم

في مثل هذا اليوم، في الطَّرَفِ الخفيِّ
من الكنيسة، في بهاءِ كأسِ التأنيث،
في السنة الكبيسة، في التقاء الأخضر
الأبديّ بالكُحليّ في هذا الصباح، وفي
التقاء الشكل بالمضمون، والحسيّ بالصُّوفيّ،
تحت عريشةٍ قَصْقاصَةٍ في ظلِّ دوريٍّ
يؤثِّثُ صورةَ المعنى، وفي هذا المكان
العاطفيّ/
سألتقي نهايتي وبدايتي
وأقول: ويحكما، خذاني واتركا
قلبَ الحقيقة طازجاً لبنات آوى الجائعات،
أقول: كنتُ مواطناً

أو لاجئاً
وأُريد شيئاً واحداً، لا غير،
شيئاً واحداً:
موتاً بسيطاً هادئاً
في مثل هذا اليوم،
في الطرف الخفيّ من الزنابق،
قد يعوِّضني كثيراً أو قليلاً
عن حياةٍ كنت أُحصيها
دقائقَ
أو رحيلا
وأُريد موتاً في الحديقة
ليس أكثرَ أو أقلّ!

8

أنزلْ، هنا، والآن

أَنزلْ، هنا، والآن، عن كَتِفَيْكَ قَبْرَكَ
وأعطِ عُمْرَكَ فُرْصَةً أخرى لترميم الحكايةِ
ليس كُلُّ الحُبِّ موتاً
ليستِ الأرضُ اغتراباً مزمناً،
فلربما جاءت مناسبةٌ، فتنسى
لَسْعَةَ الفصلِ القديمِ، كأنْ تُحِبَّ
وأنتَ لا تدري فتاةً لا تُحِبُّكَ
أو تُحبُّكَ، دون أن تدري لماذا
لا تُحبُّكَ أو تُحبُّكَ/
أو تُحِسَّ وأنت مُسْتَنِدٌ إلى دَرَجٍ
بأنّكَ كنتَ غيركَ في الثنائيات/
فاخرجْ من «أنا»كَ إلى سواكَ

ومن رؤاكَ إلى خُطاكَ

ومُدَّ جسرَكَ عالياً،

فاللاممكنُ هُوَ المكيدةُ،

والبَعوضُ على السياجِ يحُثُّ ظَهرَكَ،

قد تذكّرُكَ البعوضةُ بالحياة!

جرِّبِ الآن الحياةَ لكي تُدَرِّبَكَ الحياةُ

على الحياةِ،

وخفِّفِ الذكرى عن الأُنثى

وأنزلْ

ها هنا

والآن

عن كتفيكَ ... قبرَكَ!

9

إن عدت وحدك

إن عُدْتَ وَحْدَكَ، قُلْ لنفسك:

غيَّرَ المنفى ملامحه ...

ألم يفجعْ أبو تمَّام قَبْلَكَ

حين قابل نفسَهُ:

ولا أنت أنت

ولا الديارُ هي الديارُ...

ستحمل الأشياءُ عنك شعورَكَ الوطنيَّ:

تنبتُ زهرةٌ بريَّةٌ في ركنك المهجورِ/

ينقُرُ طائرُ الدوريِّ حرفَ «الحاء»

في اسمكَ،

في لحاء التِّينةِ المكسورِ/

تلمّعُ نخلةً يدكَ التي امتدَّتْ
إلى زَغَبِ الإوزَّةِ خلف هذا السورِ!

أَمَّا أنتَ،
فامرأةٌ قد خَذَلَتْكَ،
أَنْتَ ولَسْتَ أنتَ، تقولُ
«أين تركتُ وجهي؟»
ثم تبحثُ عن شعورك، خارج الأشياءِ
بين سعادةٍ تبكي واختلاطٍ بقهقهةٍ .
هل وجدت الآن نفسك؟
قل لنفسك. عُدْتُ وحدي ناقصاً
قمرَيْنِ،
لكنَّ الديارَ هي الديارُ!

10

لم أعتذر للبئر

لم أعتذرْ للبئرِ حين مَرَرْتُ بالبئرِ
استعَرْتُ من الصَّنَوْبَرة العتيقةِ غيمةً
وعَصَرْتُها كالبرتقالةِ، وانتظرتُ غزالةً
بيضاءَ أسطوريّةً. وأمَرْتُ قلبي بالتريُّث:
كُنْ حياديّاً كأنّكَ لَسْتَ مني! ها هنا
وقف الرُّعاةُ الطيّبون على الهواء وطوَّروا
الناياتِ، ثم استدرجوا حَجَلَ الجبال إلى
الفخاخ. وها هنا أسْرَجْتُ للطيران نحو
كواكبي فَرَساً، وطرتُ. وها هنا قالت
لي العرّافةُ: احذرْ شارعَ الإسفلتِ
والعرباتِ وامشِ على زفيرك. ها هنا
أرخيتُ ظلِّي وانتظرتُ، اخترْتُ أصغرَ

صخرةٍ وسَهوتُ. كَسَرْتُ الخرافة وانكسرتُ.
ودُرْتُ حول البئر حتى طرتُ من نفسي
إلى ما ليس منها. صاح بي صوتٌ
عميقٌ: ليس هذا القبرُ قبرَك، فاعتذرتُ.
قرأتُ آياتٍ من الذكر الحكيم، وقُلْتُ
للمجهول في البئر: السلام عليك يوم
قُتِلْتَ في أرض السلام، ويومَ تصعدُ
من ظلام البئر حيّاً!

11

لا راية في الريح

لا رايةٌ في الريح تخفقُ/
لا حصانٌ سابحٌ في الريحِ/
لا طَبْلٌ يُبَشِّرُ بارتفاعِ الموجِ
أو بهبوطِهِ،
لا شيءَ يحدثُ في التراجيديَّاتِ هذا اليومَ/
أُسْدِلَتِ الستارةُ/
غادرَ الشعراءُ والمتفرِّجونَ،
فلا أُرَى/
لا مظاهرةٌ/
ولا أغصانُ زيتونٍ تُحَيِّي الهابطينَ
من المراكبِ مُتْعَبينَ من الوَداعِ
وحفلةِ المنفى الأخيرِ/

كأنَّهم يأتون من قَبرٍ إلى قَبرٍ/
مصائرُهُم مُدَوَّنةٌ وراء النصِّ،
إغريقيَّةٌ في شكل طُرْوادِيَّة،
بيضاءَ أو سوداءَ/
لا انكسروا ولا انتصروا
ولم يتساءلوا: ماذا سيحدُثُ في صباح غدٍ
وماذا بعد هذا الانتظار الهوميريِّ؟/
كأنه حُلْمٌ جميلٌ يُنصف الأسرى
ويُشجعُهُم على الليل الخليِّ الطويل،
كأنهم قالوا:
« نُداوي جرحنا بالملح
« نحيا قرب ذكرانا
« نُجرِّبُ موتنا العاديَّ
« ننتظر القيامةَ، ههنا، في دارها
في القصص ما بعد الأخير...»

12

سقط الحصان عن القصيدة

سَقَطَ الحصانُ عن القصيدةِ
والجليليّاتُ كُنَّ مُبَلَّلاتٍ
بالفَراشِ وبالندى
يَرْقُصْنَ فوق الأقحوانْ

□

الغائبان: أنا وأنتِ
أنا وأنتِ الغائبانْ

□

زوجا يمامٍ أبيضانْ
يَتَسامران على غُصون السنديانْ

□

لا حبّ، لكني أحبُّ قصائدَ
الحبِّ القديمةَ، تحرسُ
القمرَ المريضَ من الدخانْ

كرٌّ وفرٌّ، كالكتابة في الرباعيات
تنأى عن زماني حين أدنو
من تضاريس المكانْ ...

لم يبقَ في اللغة الحديثة هامشٌ
للاحتفاء بما نحبُّ،
فكُلُّ ما سيكونُ ... كانْ

سقط الحصانُ مضرَّجاً
بقصيدتي
وأنا سقطتُ مضرَّجاً
بدمِ الحصانِ ...

13

لبلادنا

لبلادنا،

وَهِيَ القريبةُ من كلامِ اللّهِ،

سَقْفٌ من سحابْ

لبلادنا،

وهي البعيدةُ عن صفاتِ الاسمِ،

خارطةُ الغيابْ

لبلادنا،

وهي الصغيرةُ مثل حبةِ سُمْسُمٍ،

أُفُقٌ سماويٌّ ... وهاويةٌ خفيّةْ

لبلادنا،

وهي الفقيرةُ مثل أَجنحةِ القَطَا،

كُتُبٌ مُقَدَّسَةٌ .. وجرحٌ في الهويّةْ

لبلادنا،

وهي المطوّقةُ الممزَّقةُ التلال،

كمائنُ الماضي الجديد

لبلادنا، وهي السَّبِيّةُ

حُرِيَّةُ الموت اشتياقاً واحتراقا

وبلادُنا، في ليلها الدمويِّ

جَوْهَرَةٌ تشعُّ على البعيد على البعيد

تُضيءُ خارجَها ...

وأمَّا نحن، داخلها،

فنزدادُ اختناقا!

14

ولنا بلاد

ولنا بلادٌ لا حُدُودَ لها، كفكرتنا عن
المجهول، ضيّقةٌ وواسعةٌ. بلادٌ ...
حين نمشي في خريطتها تضيقُ بنا،
وتأخذنا إلى نَفَقٍ رماديٍّ، فنصرخ
في متاهتها: وما زلنا نحبّك. حُبّنا
مَرَضٌ وراثيٌّ.   بلادٌ ... حين
نُبعدُ إلى المجهول ... تكبرُ. يكبرُ
الصفصافُ والأوصافُ يكبرُ عُشبُها
وجبالُها الزرقاءُ. تتّسعُ البحيرةُ في
شمالِ الروح. ترتفعُ السنابلُ في جنوب
الروح. تلمعُ حبّةُ الليمون قنديلاً
على ليل المُهاجرِ. تسطعُ الجغرافيا

كُتُباً مُقَدَّسَةً وسلسلةُ التلال
تصير معراجاً إلى الأعلى ، إلى الأعلى.
«لو أنّي طائرٌ حرقتُ أجنحتي» يقول
لنفسه المنفيُّ. رائحةُ الخريف تصيرُ
صورةَ ما أحبُّ... تسرَّبَ المطرُ
الخفيفُ إلى جفاف القلب، فانفتح الخيالُ
على مصادِرِهِ، وصار هو المكانَ، هو
الحقيقيَّ الوحيدَ. وكُلُّ شيء في
البعيد يعود ريفياً بدائياً، كأنَّ الأرضَ
ما زالت تكوِّن نفسها للقاء آدمَ، نازلاً
للطابق الأرضيِّ من فردوسه. فأقول:
تلك بلادنا حُبْلَى بنا .. فمتى وُلِدْنا؟
هل تزوَّج آدمُ امرأتين؟ أم أنَّا
سَنُولَدُ مرةً أخرى
لكي ننسى الخطيئةَ؟

15

لا شيء إلاَّ الضوء

لا شيءَ إلاَّ الضوء،
لم أُوقفْ حصاني
إلاَّ لأقطف وردةً حمراءَ من
بُستان كَنعانيَّةٍ أغوتْ حصاني
وتحصَّنتْ في الصورة:
«لا تدخُلْ ولا تخرجْ» ...
فلم أَدخلْ، ولم أَخرجْ
وقالت: هل تراني؟
همستُ: لنفسي، لا أعرف، فرقٌ
بين المسافر والطريق، وفرقٌ
بين المغنّي والأغاني ...
جَلَسَتْ أريحا، مثل حرف

من حروف الأبجدية في اسمها
وَكَبَوْتُ في اسمي
عند مُفْتَرَقِ المعاني ...
أَنا ما أكونُ غداً
ولم أُوقفْ حصاني
إلاّ لأقطفَ وردةً حمراءَ من
بستان كَنْعانيّةٍ أَغوتْ حصاني
ومضيتُ أَبحث عن مكاني
أَعلى وأَبعدَ،
ثم أَعلى ثم أَبعدَ،
من زماني ...

16

نزف الحبيب شقائق النعمان

نَزَفَ الحبيبُ شقائقَ النُّعمانِ،
أرضُ الأرجوانِ تلألأتْ بجروحِهِ،
أولى أغانيها، دمُ الحُبِّ الذي سمكته آلهةٌ،
وآخرُها دمٌ
يا شعبَ كنعانَ احتفلْ
بربيعِ أرضِكَ، واشتعلْ
كزهورِها، يا شعبَ كنعانَ المُجرَّدَ من
سلاحِكَ، واكتملْ!
من حُسْنِ حظِّكَ أنَّكَ اخترتَ الزراعةَ مهنةً
من سوءِ حظِّكَ أنَّكَ اخترتَ البساتينَ
القريبةَ من حدودِ اللهِ،
حيثُ السيفُ يكتبُ سيرةَ الصَّلصالِ..

فلتكُن المسافةُ بيننا الأبديّ،
وليكن الخلودُ كلابَ صيدٍ
في حقول القمح،
ولتكن الأبابيلُ حُرّةً
كقصيدةٍ رعويّة ...

زَفّ الحبيبُ شقائقَ النعمان،
فاصفرّتْ صخورُ التلِّ من
وجع المخاض الصعب،
واحمرّتْ،
وسال الماءُ أحمرَ
في عروق ربيعنا ...
أُولى أغانينا دمُ الحُبِّ الذي
سفكته آلهةٌ،
وآخرُها دمٌ سفكته آلهةُ الحديد...

17

في القدس

في القدس، أعني داخلَ السُّور القديمِ،
أسيرُ من زَمَنٍ إلى زَمَنٍ بلا ذكرى
تُصوِّبني. فإن الأنبياءَ هناك يقتسمون
تاريخَ المقدَّسِ .. يصعدون إلى السماء
ويرجعون أقلَّ إحباطاً وحزناً، فالمحبَّةُ
والسلامُ مُقَدَّسانِ وقادمان إلى المدينة.
كنتُ أمشي فوق مُنْحَدَرٍ وأَهْجِسُ: كيف
يختلف الرواةُ على كلام الضوء في حَجَرٍ؟
أَمِنْ حَجَرٍ شحيحِ الضوء تندلعُ الحروبُ؟
أسيرُ في نومي. أحملق في منامي. لا
أرى أحداً ورائي. لا أرى أحداً أمامي.
كُلُّ هذا الضوءِ لي. أمشي. أخفُّ. أطيرُ

ثم أصير غيري في التجلّي. تنبتُ
الكلماتُ كالأعشاب من فم أشعيا
النبويّ: «إنْ لم تؤمنوا لن تأمنوا».
أمشي كأنّي واحدٌ غيري. وجُرْحي وَرْدَةٌ
بيضاءُ إنجيليّةٌ. ويدايَ مثل حمامتَيْنِ
على الصليب تُحلّقان وتحملان الأرضَ.
لا أمشي، أَطيرُ، أَصيرُ غَيْري في
التجلّي. لا مكانَ ولا زمانَ. فمن أنا؟
أنا لا أنا في حضرة المعراج. لكنّي
أُفكِّرُ: وَحْدَهُ، كان النبيّ محمّدٌ
يتكلّمُ العربيّةَ الفُصْحَى. «وماذا بعد؟»
ماذا بعد؟ صاحت فجأةً جنديّةٌ:
هُوَ أنتَ ثانيةً؟ ألم أقتلْكَ؟
قلت: قَتَلْتِني ... ونسيتُ، مثلك، أن أموت.

18

بغيابها كوّنْتُ صورتها

بغيابها، كوّنْتُ صورتَها، مِنَ الأرضيِّ
يبتدىء السماويُّ الخفيُّ. أنا هنا زمنُ
المدى بمعلّقات الجاهليين ... الغياب هُوَ
الدليلُ هُوَ الدليلُ. لكُلِّ قافيةٍ أُقيمتْ
خيمةٌ، ولكُلِّ شيء في مهبِّ الريح
قافيةٌ. يُعَلّمني الغيابُ دروسه. ولولا
السرابُ لَمَا صَمَدْتُ... وفي الفراغ
فَكَكْتُ حرفاً من حروف الأبجديات القديمة
واتّكأتُ على الغياب. فمَنْ أنا بعد
الزيارةِ؟ طائرٌ، أم عابرٌ بين الرموز
وباعةِ الذكرى؟ كأني قِطْعَةٌ أثريةٌ،
وكأنني شَبَحٌ تسلّلَ من يديَّ، وقلتُ لي:

فدعتني إلى تلالٍ سابقةٍ فوضعتُ
أَنَيَّتي على حجرٍ، وسرتُ كما يسير
النائمون يقودُني حُلْمي، ومن قمرٍ إلى
قمرٍ قفزتُ. هناك ما يكفي من اللاوعي
كي تتحرَّر الأشياءُ من تاريخها. وهناك
ما يكفي من التاريخ كي يتحرَّر اللاوعيُ
من معراجه. «خذني إلى سنواتنا
الأولى» ـ تقول صديقتي الأولى. «دعي
الشبَّاكَ مفتوحاً ليدخل طائرُ الدوريّ
حلْمَكِ» .. ثم أصحو، لا مدينةَ في
المدينة. لا «هنا» إلاّ «هناك». ولا
هناك سوى هنا. لولا السرابُ
لَما مشيتُ إلى تلالٍ سابقةٍ. ـ
لولا السراب!

19

الأربعاء، الجمعة، السبت

الأربعاءُ/
الجُمعةُ/
السَّبتُ/
الأساطيرُ أنبلُكِ تشابهتْ . .
لو كان لي قلبانِ لم أندم على
حبِّهِ، وإنْ أخطأتُ قلتُ: أسأتُ
يا قلبي الجريحَ الاختيارَ . وقادني
القلبُ الصحيحُ إلى اليتيمِ/

الخميسُ
الشَّوْشَنُ/
الاثنينُ/

أسماءُ المكانِ تشابهتْ. أرهقتُ أعصابي
بوصفِ الظلِّ. والمعنى تَعَرّى قُبَيْلَ
الظلامِ ولا نرى. قالَ الكلامُ كلامَهُ،
وبكتْ إلهاتٌ كثيراتٌ على أدوارهنَّ/

ألحكمةُ/
ألأحَدُ/
الغَدُ/
الطُرُقُ، الثلاثاءُ، السماءُ، تشابهت
لو كان لي دربان لاخترتُ البديلَ
الثالثَ. انكشفَ الطريقُ الأوَّلُ،
انكشفَ الطريقُ الآخَرُ،
انكشفتْ دُروبُ الهاوية

20

زيتونتان

زيتونتان عتيقتان على شمال الشرق،
في الأولى اختبأتُ لأخدعَ الراوي
وفي الأخرى خبّأتُ شقائق النعمانْ

إن شئتُ أن أنسى ... تذكّرتُ
امتلأتُ بحاضري، واخترتُ يومَ
ولادتي ... لأرتّبَ النسيانْ

تتشعّبُ الذكرى، هُنا قمَرٌ يُعِدُّ
وليمةً لغيابه، وهناك بئرٌ في
جنوبيّ الحديقة رقَّتِ امرأةٌ إلى شيطانْ

كُلُّ الملائكة الذين أُحبُّهُم
أخذوا الربيع من المكان، صباح
أمسِ، وأورثوني فتنةَ البركانْ

أنا آدمُ الثاني. تعلَّمتُ القراءةَ
والكتابةَ من دروس خطيئتي،
وغدي سيبدأ من هنا، والآنْ

إن شئتُ أن أنسى... تذكَّرتُ
انتبهتُ بداهةً، ووُلِدتُ كيف أردتُ
لا بطلاً ... ولا قُربانْ

تتشعَّبُ الذكرى وتلعبُ. ها هنا
زيتونتان عتيقتان على شمال الشرق
في الأولى وَجدتُ بذورَ أُغنيتي

وفي الأخرى وَجدتُ رسالةً
من قائد الرومانْ:

يا إخوةَ الزيتونْ
أطلبُ منكمُ الغفران،
أطلبُ منكمُ الغفران...

21

لا ينظرون وراءهم

لا ينظرونَ وراءهمْ ليودّعوا منفى،
لأنّ أمامهم منفى، لقد أَلِفُوا الطريق
الدائريَّ، فلا أمامَ ولا وراء، ولا
شمالَ ولا جنوبَ. «يهاجرون» من
السياج إلى الحديقة. يتركون وصيّةً
في كل مترٍ من فناء البيت:
«لا تتذكّروا من بعدنا
إلاّ الحياة» . .
«يسافرون» من الصباح السندسيّ إلى
غبارٍ في الظهيرة، حاملين نعوشَهُمْ ملأى
بأشياء الغياب: بطاقةٍ شخصيّةٍ، ورسالةِ
لحبيبةٍ مجهولةِ العنوانِ،

«لا تتذكَّري من بعدنا
إلاَّ الحياة»
و«يرحلون» من البيوت إلى الشوارع،
راسمين إشارةَ النصر الجريحةَ، قائلين
لمن يراهُمْ:
«لم نَزَلْ نحيا، فلا تتذكَّرونا»!
يخرجون من الحكاية للتنفُّس والتشمّس.
يحلُمُون بفكْرةِ الطَّيَران أعلى... ثم أَعلى.
يصعدون ويهبطون. ويذهبون ويرجعون.
ويقفزون من السيراميك القديم إلى النجوم.
ويرجعون إلى الحكاية ... لا نهايةَ للبداية.
يهربون من النُعاس إلى مَلاَك النوم،
أَبيضَ، أَحْمَرَ العينين من أَثَرِ التأمُّل
في الدم المسفوكِ
«لا تتذكروا من بعدنا
إلاَّ الحياة» . .

22

لم يسألوا: ماذا وراء الموت

لم يسألوا: ماذا وراء الموت؟ كانوا
يَحفظُون خريطةَ الفردوس أكثرَ من
كتاب الأرض، يُشغِلُهُم سؤال آخر:
ماذا سنفعل قبل هذا الموت؟ قربَ
حياتنا نحيا، ولا نحيا. كأنَّ حياتنا
حِصَصٌ من الصحراء مُختلَفٌ عليها بين
آلهة العقار، ونحن جيرانُ الغبار الغابرونَ.
حياتنا عبءٌ على ليل المُؤرِّخ: «كُلّما
أخفيتُهم طلعوا عليَّ من الغياب»...
حياتنا عبءٌ على الرسام: «أرسُمُهُم،
فأصبح واحداً منهم، ويحجبني الضباب».
حياتنا عبءٌ على الجنرال: «كيف يسيل

من شَبَحِ دمٍ؟! وحياتنا
هي أن نكون كما نريد. نريد أن
نحيا قليلاً، لا لشيء... بل لنحترمَ
القيامةَ بعد هذا الموت. واقتبسوا،
بلا قصدٍ، كلامَ الفيلسوف: «ألموت
لا يعني لنا شيئاً. نكونُ فلا يكونُ.
ألموت لا يعني لنا شيئاً. يكونُ فلا
نكونُ»
ورتَّبوا أحلامهم
بطريقةٍ أخرى، وناموا واقفين!

23

قتلى ومجهولون

قتلى، ومجهولون. لا بيتٌ يجمعُهُمْ
ولا ذكرى تفرّقهُمْ ... ومنسيّون في
عُشْبِ الشتاءِ على الطريق العامّ بين
حكايتين طويلتين عن البُطُولةِ والعذابِ
«أنا الضحيّةُ». «لا. أنا وحدي
الضحيّة». لم يقولوا للمؤلّف. «لا
ضحيّةً تقتل الأخرى. هنالك في
الحكاية قاتلٌ وضحيّةٌ» كانوا صغاراً
يقطفون الثلج عن شَجَرِ المسيح،
ويلعبون مع الملائكة الصغار، لأنّهُمْ
أبناءُ جيلٍ واحدٍ .... يتسرّبُون من
المدارس هاربين من الرياضيات والشعر

الحماسيّ القديم، ويلعبون مَعَ الجنود
على الحواجز، لُعْبَةَ الموت البريئةْ.
لم يقولوا للجنود: دعوا البنادقَ
وافتحوا الطرقاتِ كي تجد الفراشةُ
أُمَّها قرب الصباح، وكي تطير مع
الفراشة خارج الأحلام، فالأحلامُ
ضيِّقةٌ على أَبوابها. كانوا صغاراً
يلعبون، ويصنعون حكايةً للوردة
الحمراء تحت الثلج، تختلف حكايتيْنِ
طويلتيْنِ عن البطولة والعذاب، ويهربون
مَعَ الملائكة الصغار إلى سماءٍ صافيةْ.

24

السروة انكسرت

«السروة شجن الشجرة وليس
الشجرة ولا ظل لها لأنها ظل الشجرة»
بسام حجار

أَلسروةُ انكَسَرَتْ كمئذنةٍ، ونامت في
الطريق على تَقَشُّفِ ظلّها، خضراءَ، داكنةً،
كما هِيَ. لم يُصَبْ أَحدٌ بسوء. مَرّت
العرباتُ مُسْرعَةً على أَغصانها. هَبَّ الغبارُ
على الزجاج... / أَلسروةُ انكسرتْ، ولكنَّ
الحمامةَ لم تغيّر عُشَّها العَلَنيَّ في دارٍ
مُجاورةٍ. وحلَّق طائران مهاجران على
كَفَافِ مكانها، وتبادلا بعضَ الرموز.
وقالت امرأةٌ لجارتها: تُرى، شاهَدْتِ عاصفةً؟

فقالت: لا، ولا جرّافةٌ../ والسروةُ
انكسرتْ. وقال العابرون على الحطام:
لعلَّها سئمتْ من الإهمال، أَو هَرِمَتْ
من الأيام، فَهْيَ طويلةٌ كزرافةٍ، وقليلةُ
المعنى كمكنسةِ الغبار، ولا تُظلِّلُ عاشقَيْن.
وقال طفلٌ: كنتُ أَرسمها بلا خطأ،
فإنَّ قوامها سَهْلٌ. وقالت طفلةٌ: إن
السماءَ اليوم ناقصةٌ لأن السروة انكسرت.
وقال فتىً: ولكنَّ السماءَ اليوم كاملةٌ
لأن السروةَ انكسرتْ. وقُلْتُ أنا
لنفسي: لا غُموضَ ولا وُضُوحَ،
السروة انكسرتْ، وهذا كُلُّ ما في
الأمرِ: إنَّ السروة انكسرتْ!

25

رجل وخشف في الحديقة

[إلى سلمان الجاسم]

رَجُلٌ وخِشْفٌ في الحديقة يلعبان معاً...
أقولُ لصاحبي: مِنْ أين جاءَ ابْنُ الغزالِ؟
يقولُ: جاء من السماء. لعلّهُ «يَحْيى»
رُزِقْتُ به ليُؤنِسَ وحشتي. لا أُمّ
تُرضِعُهُ فكُنْتُ الأمّ، أسقيهِ حليبَ
الشاة ممزوجاً بِمِلْعَقةٍ من العَسَلِ
المُعَطّرِ ثم أحمِلُهُ كَمِيمَةِ عاشقٍ في
غابة البَلّوطِ...
قُلْتُ لصاحبي: هل صار يألَفُ بيتكَ
المأهولَ بالأصواتِ والأدوات؟
قال: وصار يرقُدُ في سريري حين يمرضُ.

ثُمّ قال: «وصِرْتُ أَمرضُ حين يمرض.
صِرْتُ أَهذي: «أَيّها الطفلُ اليتيم!
أَنا أَبوك وأُمُّكَ، انهضْ كي تعلّمني
السكينة!»

بعد شهرٍ زُرْتُهُ في بيته الريفيّ.
كان كلامُهُ يبكي. لأوّل مرةٍ يبكي سُلَيْمانُ
القويُّ، يقول لي متهدِّجَ الصوت: «ابنُ
الغزال، ابنُ الغزالة مات بين يديَّ
لم يألف حياةَ البيت. لكنْ لم يَمُتْ
مثلي ومثلكَ...»

لم أَقل شيئاً لصاحبيَ الحزين ولم
يودّعني، كعادته، بأَبياتٍ من الشعر
القديم. مشى إلى قبر الغزال الأبيض.
أَحتضنَ الترابَ وأَجهشَ: «انهضْ
كي ينام أَبوك، يا ابني، في سريرك.

ها هنا أجدُ السكينةَ!

نام في قبر الغزال، وصار لي
ماضٍ صغيرٌ في المكانْ:
نَخْلٌ وعُشْبٌ في الحديقة يرقدانْ!

26

هذا هو النسيان

هذا هُوَ النسيانُ حوْلَكَ: نقطاتٌ
تُوقظُ الماضي، تحثُّ على التذكُّر. تكبح
الزَّمنَ السريعَ على إشارات المرور،
وتُعمِّقُ الساحاتِ/

تمثالٌ رُخاميٌّ هو النسيانُ. تمثالٌ
يُحمْلِقُ فيكَ: قِفْ مثلي لتشبهني.
وَضَعَ ورداً على قدميْ/

أُغنيةٌ مُكَرَّرةٌ هو النسيانُ. أُغنيةٌ
تطاردُ ربّةَ البيتِ احتفاءً بالمناسبة
السعيدةِ، في السرير وغرفة الفيديو،

وفي صالونها الحدوي، ومطبخها/

وأَنصابٌ هو النسيانُ. أَنصابٌ على
الطرقات تأخذ هيئة الشَّجَر البُرونزيِّ
المرصَّعِ بالمدائح والصقورِ/

ومتحفٌ خابٍ من الغدِ باردٌ،
يروي العصورَ المنتقاة من البدايةْ
هذا هو النسيانُ: أَن تتذكَّرَ الماضي
ولا تتذكَّرَ الغَدَ في الحكايةْ

27

تُنسى، كأنك لم تكن

تُنسى، كأنّكَ لم تَكُنْ
تُنسى كمصرعِ طائرٍ
ككنيسةٍ مهجورةٍ تُنسى،
كحبّ عابرٍ
وكوردةٍ في الليل . . تُنسى

□

أَنا للطريق ... هناك من سَبَقَتْ خُطَاهُ خُطاي
مَنْ أَمْلَى رُؤاهُ على رُؤايَ. هُنَاكَ مَنْ
نَثَرَ الكلام على سجيّتهِ ليدخل في الحكايةِ
أَو يضيءَ لمن سيأتي بعدَهُ
أَثراً غنائياً ... وحدسا

■

تُنسَى، كأنك لم تكن
شخصاً، ولا نصّاً ... وتُنسى

□

أمشي على هَدْيِ البصيرة، رُبّما
أُعطي الحكايةَ سيرةً شخصيّةً. فالمفرداتُ
تسوسُني وأسوسُها. أنا شكلها
وهي التجلّي الحُرُّ. لكنْ قيل ما سأقول.
يسبقني غدٌ ماضٍ. أنا مَلِكُ الصدى
لا عَرْشَ لي إلاّ الهوامش. والطريقُ
هو الطريقةُ. رُبّما نسِيَ الأوائلُ وَصْفَ
شيء ما، أُحرِّكُ فيه ذاكرةً وحسّا

□

تُنسَى، كأنّكَ لم تكن
خبراً، ولا أثراً .. وتُنْسى

□

أنا للطريق ... هناك مَنْ تمشي خُطاهُ
على خُطايَ، ومَنْ سيتبعني الى رؤيايَ،
مَنْ سيقول شعراً في مديح حدائق المنفى،
أمامَ البيت، حراً من عبادةِ أمسِ،
حراً من كناياتي ومن لغتي، فأشهد
أنني حيٌّ
وحُرٌّ
حين أُنسَى!

28

أما أنا، فأقول لاسمي

أمَّا أنا، فأقولُ لاسْمي: دَعْكَ منّي
وابتعدْ عنّي، فإنّي ضقتُ منذ نطقتُ
وأتّسعتْ صفاتُكَ! خُذ صفاتِكَ وامتحن
غيري . حملتُكَ حين كنا قادرَيْن على
عبور النهر مُتّحدين «أنت أنا»، ولم
أَخْتَرْكَ يا ظلّي السلوقيّ الوفيّ، اختارك
الآباء كي يتفاءلوا بالبحث عن معنى،
ولم يتساءلوا عمّا سيحدُثُ للمُسمّى عندما
يقسو عليه الاسمُ، أو يُملي عليه
كلامَهُ فيصير تابعَهُ ... فأين أنا؟
وأين حكايتي الصُغرى وأوجاعي الصغيرةُ؟
تجلس امرأةٌ مَعَ اسْمي دون أن

تصغي لصوتِ أُخوّةِ الحيوانِ

والإنسانِ في جسدي، وتروي لي

حكايةَ حبها، فأقول: إن أَعطيتني بنتَكِ

الصغيرةَ صرتُ مثلَ حديقة .. فتقول:

لَستَ هُوَ الذي أعنيه، لكني أُريد

نصيحةً شعريةً. ويحملقُ الطلاب في

اسمي غير مكترثين بي، وأنا أَمرّ

كأنني شخص فضوليٌّ. وينظر قارىء

في اسمي، فيبدي رأيه فيه: أُحبُّ

مسبحةُ المعاني، وأمّا نبرةُ الذاتيِّ في

وَصْفِ الضباب، فلا ... ويسألني:

لماذا كنتَ ترمقني بطَرْفٍ ساخرٍ. فأقول:

كنت أحاور اسمي: هل أنا صِفَةٌ؟

فيسألني: وما شأني أنا؟!

أنا آن، فأقول لاسمي: أَعطني
ما ضاع من حُزني!

29

الحلم، ما هو؟

ألحلمُ، ما هوَ؟
ما هوَ اللاشيءُ هذا
عابرُ الرمسِ،
ألبهيُّ كنجمةٍ في أوّلِ الحبِّ،
ألشهيُّ كصورةِ امرأةٍ
تدلّكُ نهدها بالشمسِ؟!
ما هوَ، لا أكادُ أراهُ حتى
يختفي في الأمسِ!
لا هوَ واقعٌ لأعيشَ وطأتَه وخفّتَهُ
ولا هوَ عكسُهُ لأطيرَ حرّاً
في فضاءِ الحدسِ!
ما هوَ، ما هوَ اللاشيءُ، هذا الهشُّ

هذا اللانهائيُّ، الضعيفُ، الباطنيُّ

الزائرُ، المتطايرُ، المتناثرُ،

المتجدِّدُ المتعدِّدُ اللاَّ شكليُّ؟

ما هُوَ؟ لا يُجَسُّ ولا يُمَسُّ/

ولا يَمُدُّ يداً إلى المُتَلهِّفين الحائرينَ

فما هُوَ السرّيُّ هذا،

الحائرُ، المتحيِّرُ، المحيِّرُ

حين أنتظرُ الزيارةَ مطمئنَّ النفسِ/

يكسرني ويخرجُ مثل لؤلؤة

تُدَحرِجُ صوتها،

ويقول لي: لا تنتظرني

إنْ أردتَ زيارتي

لا تنتظرني!

30

الآن، إذ تصحو، تتذكّر

الآن، إذ تصحو، تَذَكَّرْ رَقْصَةَ الْبَجَعِ
الأخيرةَ. هل رَقَصْتَ مَعَ الملائكةِ الصغارِ
وأنت تَحْلُمُ؟ هل أضاءتك الفراشةُ عندما
احترقَتْ بضوءِ الوردة الأبديِّ؟ هل
ظهرتْ لك العنقاءُ واضحةً ... وهل نادتك
باسمك؟ هل رأيتَ الفجرَ يطلع من
أصابعِ مَنْ تُحِبُّ؟ وهل لَمَسْتَ الحُلْمَ
باليدِ، أم تَرَكْتَ الحُلْمَ يحلُمُ وحْدَهُ،
حين انتبهتَ إلى غيابكَ بَغْتَةً؟
ما هكذا يُخْلي المنامَ الحالمون،
فإنهم يتوهجون،
ويكملون حياتهم في الحُلْمِ .

قل لي: كيف كنتَ تعيش حُلْمَكَ
في مكانٍ ما، أَقُلْ لك مَنْ تكونْ

والآن، إذ تصحو، تذكَّرْ:
هل أَسَأْتَ إلى منامك؟
إن أسأت، إذاً تذكَّرْ
رقصةَ البجع الأخيرة!

31

الظلّ

الظلُّ، لا ذَكَرٌ ولا أُنثى
رماديٌّ، ولو أشعلتُ فيه النارَ ...
ينحني، ويكبرُ ثُمَّ يصغرُ
كُنتُ أمشي. كانَ يمشي
كنتُ أجلسُ. كانَ يجلسُ
كنتُ أركضُ. كانَ يركضُ
قلتُ: أخدعُهُ وأخلعُ معطفي الكُحليَّ
قُدّامي، وأُلقي عنه معطفَهُ الرماديَّ.
استدرتُ إلى الطريقِ الجانبيّةِ
فاستدارَ إلى الطريقِ الجانبيّةِ.
قُلتُ: أخدعُهُ وأخرجُ من غروبِ مدينتي
فرأيتُهُ يمشي أمامي

في غروب مدينةٍ أخرى . .
فقلت: أعود مُتَّكِئاً على عُكّازتيْنِ
فعاد متكئاً على عكازتين
فقلت: أحمله على كتفيَّ
فاستغضى ...
فقلتُ. إذنْ، سأتبعهُ لأخدعَهُ
سأتبعُ بقعة الشكلِ شُخْرِيَةً
أُقلِّد ما يُقلِّدني
لكي يقعَ الشبيهُ على الشبيه
فلا أراهُ، ولا يراني.

32

لا شيء يعجبني

«لا شيءَ يُعْجبُني»

يقول مسافرٌ في الباصِ – لا الراديو

ولا صُحُفُ الصباحِ، ولا القلاعُ على التلال.

أُريد أن أبكي/

يقول السائقُ: انتظرِ الوصولَ إلى المحطَّةِ،

وابْكِ وحدك ما استطعتَ/

تقول سيّدةٌ: أنا أيضاً. أنا لا

شيءَ يُعْجبُني. دَلَلْتُ ابني على قبري،

فأعْجَبَهُ ونامَ، ولم يُوَدِّعْني/

يقول الجامعيُّ: ولا أنا، لا شيءَ

يعجبني. دَرَسْتُ الأركيولوجيا دون أن

أجدَ الهُوِيَّةَ في الحجارة. هل أنا

حقاً أنا؟!/

ويقول جندي: أنا أيضاً. أنا لا

شيء يُعْجبني. أُحاصِرُ دائماً شبحاً

يُحاصِرُني/

يقولُ السائقُ العصبيُّ: ها نحن

اقتربنا من محطتنا الأخيرة، فاستعدوا

للنزول .../

فيصرخون: نريدُ ما بَعْدَ المحطَّةِ،

فانطلق!

أمَّا أنا فأقولُ: أنْزِلْني هنا. أنا

مثلهم لا شيء يعجبني، ولكني تعبتُ

من السَّفَرْ.

33

هو هادئ، وأنا كذلك

هُوَ هادِئٌ، وأنا كذلكَ
يَحتَسِي شاياً بليمونٍ،
وأشربُ قهوةً،
هذا هُوَ الشيءُ المغايرُ بيننا.
هُوَ يرتدي، مثلي، قميصاً واسعاً ومُخَطَّطاً
وأنا أطالعُ، مثلَهُ، صُحُفَ المساءِ.
هُوَ لا يراني حين أنظرُ خِلْسةً،
أنا لا أراه حين ينظرُ خِلسةً،
هو هادئٌ، وأنا كذلكَ.
يسألُ الجرسونَ شيئاً،
أسألُ الجرسونَ شيئاً...
قطةٌ سوداءُ تعبرُ بيننا،
فأجسُّ فروةَ ليلِها

ويجسُّ فروةَ ليلها .
أنا لا أقول لهُ: السماءُ اليومَ صافيةٌ
وأكثرُ زرقةً.
هو لا يقول لي: السماءُ اليومَ صافيةٌ.
هو المرئيُّ والرائي
أنا المرئيُّ والرائي.
أحرِّكُ رِجْليَ اليسرى
يحرِّكُ رجلَهُ اليُمنى.
أدندنُ لَحْنَ أُغنيةٍ،
يدندنُ لحنَ أُغنيةٍ مشابهةٍ.
أُفكِّرُ. هل هو المرآةُ أُبصِرُ فيه نفسي؟

ثم أنظر نحو عينيه،
ولكنْ لا أراهُ ..
فأتركُ المقهى على عَجَلٍ.
أفكِّر: ربَّما هو قاتلٌ، أو ربَّما
هو عابرٌ قد ظنَّ أَني قاتلٌ

هو خائفٌ، وأَنا كذلكْ!

34

وصف الغيوم

«وصف الغيوم»
عليّ أن أسرع كثيراً
فبعد ثانية لن تكون ما هي
عليه، ستصير أخرى»
شيمبورسكا

وَصْفُ الغيوم مَهارةٌ لم أُوتَها . .
أَمشي على جَبَلٍ وأَنظُرُ من عَلٍ
نحو «الغيوم»، وقد تسلّلتْ من مِئزر اللازوردِ
حميمةً وشفيفةً،
كالقطن تحلجه الرياح،
كفكرةٍ يفتّشه عن معنى الوجود.
لعلَّ آلهةً تنقّحُ قصّةَ التكوينِ
ولا شكلَ نهائيّ لهذا الكون .

لا تاريخَ للأشكالِ..،
أنظرُ من عَلٍ، وأرى انبثاقَ الشكلِ
من عَبثيّةِ اللاّشكلِ
ريشُ الطيرِ ينْبُتُ في قُرونِ الأَيِّلِ البيضاءِ،
وَجْهُ الكائنِ البشريّ يطلع من
جناحِ الطائرِ المائيّ .
ترشُدنا الغيومُ على وتيرتها
وتختلطُ الوجوهُ مع الرؤى
لم يكتمل شيءٌ ولا أحدٌ، فبعد هنيهة
ستصيرُ صورتُكَ الجديدةُ صُورةَ النَّمِرِ
الجريحِ بصولجانِ الريحِ ...
رسّامون مجهولون ما زالوا أمامكَ
يهبون، ويرسمون المُطْلَقَ الأبديَّ،
أبيضَ، كالغيوم على جدار الكوب ...
والشعراءُ يمرّون اسارى بالغيوم
ويذهبون...

لكُلِّ حسٍّ صورةٌ،
ولكُلِّ وقتٍ غيمةٌ
لكن أعمارَ الغيوم قصيرةٌ في الريح،
كالأبد المؤقت في القصائد،
لا يزول ولا يدوم ...

من حُسن حظّي أنني أمشي على جَبَلي
وأنظر من علٍ
نحو الغيوم...

35

هي جملة اسمية

هي جُمْلَةٌ إسميّةٌ، لا فِعْلَ
فيها أوّلها: للبحر رائحةُ الأَسِرَّةِ
بعد فِعْلِ الحُبِّ ... عطرٌ مالحٌ أو
حامضٌ هيَ جملة إسميّة: فرحي
جريحٌ كالغروب على شبابيك الغريبةِ.
زهرتي خضراءُ كالعنقاء. قلبي فائضٌ
عن حاجتي، مترددٌ ما بين بابَيْنِ:
الدخولُ هو المتاهةُ، والخروج هُوَ
المتاهةُ. أين ظلّي - مرشدي وسط
الزحام على الطريق إلى القيامة؟ ليتني
حَجَرٌ قديمٌ داكنُ اللونين في سور المدينة،
كستنائيٌّ وأسودُ، غائرٌ في اللاشعور

تجاه رؤاي وتأويل الظلال. وليت
للفعل المُضارِعِ موطئاً للسير خلفي
أو أمامي، حافي القدمين. أين
طريقيَ الثاني إلى درج المدى؟ أين
السُّدَى؟ أين الطريقُ إلى الطريق؟
وأين نحنُ، السائرين على خُطَى الفعل
المضارع، أين نحن؟ كلامُنا خبَرٌ
ومُبْتَدأ أمام البحر، والزَّبَدُ المراوغُ
في الكلام هُوَ النقاطُ على الحروف،
فليت للفعل المضارع موطئاً فوق
الرصيف ...

36

قل ما تشاء

قُلْ ما تشاءُ، ضَعِ النقاطَ على الحروف.
ضَعِ الحروفَ مع الحروفِ لتُولَدَ الكلماتُ،
غامضةً وواضحةً، ويبتدئَ الكلامُ.
ضَعِ الكلامَ على المجاز. ضَعِ المجازَ على
الخيال. ضَعِ الخيالَ على تَلَفُّته البعيد
ضَعِ البعيدَ على البعيد ... سيُولَدُ الإيقاعُ
عند تَشابُكِ الصُّوَرِ الغريبةِ من لقاء
الواقعيِّ مع الخياليِّ المُشاكس/
هل كَتَبْتَ قصيدةً؟
كلا!
لعلَّ هناك ملحاً زائداً أو ناقصاً
في المفردات. لعلَّ حادِثةً أخلَّتْ بالتوازن

في مُعَادَلَةِ الظلال. لعلَّ نسراً
مات في أعلى الجبال. لعلَّ أرضَ
الرمز خُضْتُ في الكتابة فاستباحتها
الرياحُ. لعلّها تَقَفَّتْ على ريش الخيال.
لعلَّ قلبَكَ لم يُفكِّرْ جيّداً، ولعلَّ
فِكْرَكَ لم يُحِسَّ بما يُرَجِّحُهُ. فالقصيدة،
زوجةُ الغد وابنةُ الماضي، تخيّم في
مكانٍ غامضٍ بين الكتابة والكلام /
فهل كَتَبْتَ قصيدةً؟
كلا!
إذنْ، ماذا كتبتَ؟
كتبتُ درساً جامعيّاً،
واعتزلْتُ الشعر منذ عرفتُ
كيمياءَ القصيدة ... واعتزلتُ!

37

لا تكتب التاريخ شعراً

لا تكتبِ التاريخَ شعراً، فالسلاحُ هو
المؤرِّخُ. والمؤرّخ لا يُصابُ برعشة
الحُمّى إذا سمّى ضحاياه، ولا يُصغي
إلى سرديّة الجيتار. والتاريخ يوميّاتُ
أسلحةٍ مُدَوَّنةٌ على أجسادنا. «إنَّ
الذكيَّ العبقريَّ هو القويُّ». وليس
للتاريخ عاطفةٌ لِنشتاقَ إلى
بدايتنا، ولا قَصْدٌ لنعرف ما الأمام
وما الوراء ... ولا استراحاتٌ على
سِكَكِ الحديد لندفن الموتى، ولننظُرَ
صَوْبَ ما فَعَلَ الزمانُ بنا هناك، وما
فَعَلْنا بالزمان، كأنّا منهُ وخارجَهُ.

فلا هو منطقيٌ أو بديهيٌ ليكسرَ
ما تَبَقّى من خرافتنا عن الزمن السعيد،
ولا خرافيٌ ليرضى بالإقامة عند أبواب
القيامة. إنَّهُ هو وحدها.. وتكرارٌ
جُنُونيٌّ، من المقلاع حتى الصاعق النوويِّ.
يصفُنا ونصنعه بلا هَدَفٍ. هل
التاريخ لم يُولَدْ كما شئنا، لأن
الكائنَ البشريَّ لم يُوجَدْ؟
ملاحمةٌ وفنانونَ مرّوا من هناك.
ودوّنَ الشعراءُ يوميّاتِ أزهارِ البنفسج
ثم مروا من هناك... وصدَّق الفقراءُ
أخباراً عن الفردوس وانتظروا هناك ...
وجاء آلهةٌ لإنقاذ الطبيعةِ من أُلوهيّة
ومرّوا من هناك. وليس للتاريخ
وَقْتٌ للتأمُّل، ليس للتاريخ مرآةٌ

وَوُجْهَةٌ سافرٌ، هو واقعٌ لا واقعيٌّ
أو خيالٌ لا خياليٌّ، فلا تكتبه.
لا تكتبه، لا تكتبه شعراً!

38

ماذا سيبقى؟

ماذا سيبقى من هبات الغيمة البيضاء؟
ـ زَهْرَةُ بيلسانْ
ماذا سيبقى من رذاذ الموجة الزرقاء؟
ـ إيقاعُ الزمانْ
ماذا سيبقى من بريق المكرة الخضراء؟
ـ ماءٌ في عُرُوق السنديانْ
ماذا سيبقى من دُمُوع الحُبّ؟
ـ وشْمٌ ناعمٌ في الأرجوانْ
ماذا سيبقى من غُبار البحث عن معنى؟
ـ طريقُ العنفوانْ
ماذا سيبقى من طريق الرحلة الكبرى
إلى المجهول؟

ـ أغنيةُ المُسافِر للحصانْ

ماذا سيبقى من سراب الخَيْم؟

ـ آثارُ السماء على الكتَّانْ

ماذا سيبقى من لقاء الشيء باللاشيء؟

ـ إحساسُ الأُلوهة بالأمانْ

ماذا سيبقى من كلام الشاعر العربيّ؟

ـ هاويةٌ ... وخيطٌ من دخانْ

ماذا سيبقى من كلامكَ أنت؟

ـ نسيانٌ ضروريٌّ لذاكرة المكانْ!

39

لا أعرف اسمك

ـ لا أعرفُ اسمَكِ

□ سَمِّني ما شئتَ

ـ لَستِ غزالةً

□ كلا. ولا فَرَساً

ـ ولستِ حَمامَةَ المنفى

□ ولا حُوريَّةً

ـ مَنْ أنتِ؟ ما اسمُكِ؟

□ سَمِّني، لأكونَ ما سَمَّيْتني

ـ لا أستطيع، لأنني ريحٌ

وأنتِ غريبةٌ مثلي، وللأسماءِ أرضٌ ما

□ إذنْ، أنا لا أحدْ

□ لا أعرفُ اسمكَ، ما اسمكَ؟
- اختاري من الأسماء أقربها
إلى السيسبان. سمِّيني أكُنْ في
أهل هذا الليل ما سمَّيتني!
□ لا أستطيعُ لأنني امرأةٌ مسافرةٌ
على ريحٍ. وأنت مسافرٌ مثلي،
وللأسماء عائلةٌ وبيتٌ واضحٌ
- فإذن، أنا «لا شيء» ...

قالت «لا أحد»:
سأعتني باسمك «شهوةً». جسدي
يضمُّكَ من جهاتكَ كُلِّها. جسدي
يضمُّكَ من جهاتي كُلِّها، لتكون شيئاً ما
ونمضي بأجنبيٍّ عن الحياة...

فقال «لا شيء»: الحياةُ جميلةٌ
تعبٌ ... الحياةُ جميلةٌ!

40

هي في المساء

هي في المساء وحيدةٌ،
وأنا وحيدٌ مثلها...
بيني وبين شموعها في المطعم الشتويّ
طاولتان فارغتان [لا شيءَ يعكّرُ صمتنا]
هي لا تراني، إذ أراها
حين تقطفُ وردةً من صدرها
وأنا كذلك لا أراها، إذ تراني
حين أرشفُ من نبيذي قُبْلَةً .
هي لا تُفتّتُ خبزها
وأنا كذلك لا أُريقُ الماءَ
فوق الشَّرشفِ الورقيّ
[لا شيءَ يكدِّر صفْوَنا]

هي وَحْدها، وأَنا أَمامَ جَمالها
وحدي. لماذا لا تُوَحِّدُنا الهَشَاشَةُ؟
قلت في نفسي -
لماذا لا أَذوقُ نبيذَها؟
هي لا تراني، إذ أَراها
حين تَرْفَعُ ساقَها عن ساقها
وأَنا كذلك لا أَراها، إذ تراني
حين أَخلَعُ معطفي ..
لا شيء يزعجها معي
لا شيء يزعجني، فنحن الآن
منسجمان في النسيان ...
كان عشاؤنا، كُلٌّ على حِدَةٍ، شهياً
كان صَوْتُ الليل أَزرقَ
لم أَكن وحدي، ولا هي وحدها
كنا معاً نصغي إلى البلَّوْرِ
[لا شيءَ يَكْسِرُ ليلنا]

هيَ لا تقولُ:
الحبُّ يُولَدُ كائناً حيًا
ويُمْسِي فكْرةً.
وأنا كذلك لا أقول:
الحب أمسى فكرة

لكنه يبدو كذلك ...

41

في الانتظار

في الانتظار، يُصيبني هَوَسٌ برصد
الاحتمالات الكثيرة. رُبَّما نَسِيَتْ حقيبتها
الصغيرة في القطار، فضاع عنواني
وضاع الهاتفُ المحمولُ، فانقطعت شهيّتها
وقالت: لا نصيبَ له من المطر الخفيفِ/
وربَّما انشغَلَتْ بأمرٍ طارئٍ أو رحلةٍ
نحو الجنوب لكي تزور الشمسَ، واتَّصلَتْ
ولكن لم تَجِدْني في الصباح، فقد
خَرَجْتُ لأشتري غاردينيا لمسائنا وزجاجتين
من النبيذ/
وربما اختلَفَتْ مع الزوجِ القديم على
شُؤون الذكريات، فأقسَمَتْ ألّا ترى

رجلاً يُهدِّدُها بصُنْعِ الذكرياتِ/
وربّما اصطَدَمَتْ بتاكسي في الطريقِ
إليَّ، فانطفأتْ كواكبُ في مَجرّتها،
وما زالت تُعالِجُ بالمهدِّىءِ والنعاسِ/
وربما نظرتْ إلى المرآة قبل خروجها
من نفسها، وتحسَّسَتْ أَجَاصَتَيْنِ كبيرتين
تُموِّجان حريرها، فتنهَّدَتْ وتردَّدتْ.
هل يستحقُّ أنوثتي أحدٌ سوايَ/
وربما عبرتْ، مُصادَفَةً، بحبٍّ
سابقٍ لم تُشفَ منه، فرافَقَتْهُ إلى
العشاءِ/
وربَّما ماتَتْ،
فإنَّ الموت يعشق فجأةً، مثلي،
وإنَّ الموتَ، مثلي، لا يحبُّ الانتظار

42

لو كنتُ غيري

لو كُنْتُ غيري في الطريق، لما التفتُّ
إلى الوراء، لقُلْتُ ما قال المسافرُ
للمسافرة الغريبة: يا غريبةُ! أيقظي
الجيتارَ أكثرَ! أرجئي غدَنا ليمتدَّ الطريقُ
بنا، ويتّسعَ الفضاءُ لنا، فننجو من
حكايتنا معاً. كم أنتِ أنتِ.. وكم أنا
غيري أمامك ها هنا!

لو كُنْتُ غيري لانتميتُ إلى الطريقِ،
فلا أعود ولا تعودي. أيقظي الجيتار
كي نتحسّسَ المجهولَ والجهةَ التي تُغوي
المسافرَ باختبار الجاذبية. ما أنا إلاّ

خُطَايَ، وأنت بوصلتي وهاويتي معاً.
لو كُنْتُ غيري في الطريق، لكُنْتُ
أَخفيتُ العواطفَ في الحقيبة، كي
تكون قصيدتي مائيّةً، شَفَّافَةً، بيضاءَ،
تجريديّةً، وخفيفةً... أقوى من الذكرى،
وأَضْعَفَ من حُبَيْبات الندى، وَلَقُلْتُ:
إنَّ هُويتي هذا المدى!

لو كُنْتُ غيري في الطريق، لَقُلْتُ
للجيتار: دَرِّبْني على وَتَرٍ إضافيٍّ!
فإنَّ البيتَ أَبعدُ، والطريقَ إليه أَجملُ ـ
هكذا ستقول أُغنيتي الجديدةُ ـ كلما
طال الطريق تجدَّدَ المعنى، وصرتُ اثنين
في هذا الطريق: أنا ... وغيري!

43

شكراً لتونس

شكراً لتونس. أرجعتني سالماً من
حُبِّها، فبكيتُ بين نسائها في المسرح
البلديِّ حين تملَّصَ المعنى من الكلمات.
كُنتُ أودِّعُ الصيفَ الأخيرَ كما يودِّعُ
شاعرٌ أُغنيةً غَزَليّةً. ماذا سأكتبُ
بعدها لحبيبةٍ أُخرى ... إذا أحببتُ؟
في لُغتي دُوَارُ البحر. في لغتي رحيلٌ
غامضٌ من صُورٍ: لا قرطاجُ تكبحُهُ، ولا
ريحُ البرابرة الجنوبيّين. جئتُ على
وتيرة نَوْرسي، وضبطتُ خيمتي الجديدةَ
فوق مُنْحَدَرٍ سماويٍّ. سأكتبُ ههنا فصلاً
جديداً في مديح البحر: أُسطوريَّةٌ

لغتي، وقلبي موجةٌ زرقاءُ تخدشُ

صخرةً: «لا تُعْطني، يا بحرُ، ما

لا أستحقُّ من النشيد. ولا تكن

يا بحرُ، أكثرَ أو أقلَّ من النشيد!» ...

تطيرُ بي لُغتي إلى مجهولنا الأبديِّ،

خلفَ الحاضرِ المكسورِ من جِهَتَيْنِ: إنْ

تنظرْ وراءكَ تُوقظْ سَدُومَ المكان على

خطيئتهِ... وإنْ تنظرْ أمامكَ توقظِ

التاريخَ، فاحذرْ لَدْغَةَ الجهتين. واتبعني

أقول لها. سأمكثُ عند نرجس بين

مَنْزِلَتَيْنِ: لا بيتي هنا بيتي، ولا

سمايَ كالمنفى. وها أنا أُودِّعُها،

فيجرحني هواءُ البحر.. مِشْطُ الليل يجرحني،

وعقدُ الياسمين على كلام الناس يجرحني،

ويجرحني التأمُّلُ في الطريق اللولبيِّ إلى ضواحي

الأندلسْ ...

44

لي مقعد في المسرح المهجور

لِيَ مقعدٌ في المسرح المهجور في
بيروتَ. قد أَنسى، وقد أَتذكَّرُ
الفصلَ الأخيرَ بلا حنينٍ ... لا لشيء
بل لأنَّ المسرحيَّةَ لم تكنْ مكتوبةً
بمهارةٍ ...
فوضى
كيوميَّات حرب اليائسين، وسيرةٌ ذاتيَّةٌ
لغرائز المتفرجين. ممثِّلون يمزِّقون نُصُوصَهُم
ويفتِّشون عن المؤلِّف بيننا، نحن الشهودَ
الجالسين على مقاعدنا.
أَقول لجاريَ الفنَّانِ: لا تُشْهِر سلاحكَ،
وانتظرْ، إلاَّ إذا كُنْتَ المؤلِّفَ!

- لا

ويسألني: وهل أنت المؤلِّفُ؟

- لا.

ويجلس جانِبَيْ. أقول: كُنْ بَطَلاً

حياديّاً لتنجو من مصير واضحٍ

فيقول: لا بَطَلٌ يموت مُبَجَّلاً في المشهد

الثاني. سأنتظر البقيّةَ. ربما أجريتُ

تعديلاً على أحد الفصول، وربما أصلحتُ

ما صَنَعَ الحديدُ بإخوتي

فأقول: أنتَ إذاً؟

يردُّ: أنا وأنت مؤلّفان مُقَنَّعان وشاهدان

مُقَنَّعان.

أقول: ما شأني؟ أنا متفرّجٌ

فيقول: لا متفرّجٌ في باب هاويةٍ... ولا

أحدٌ حياديٌّ هنا. وعليك أن تختار

دورك في النهاية

فأقول: تنقصني البداية، ما البداية؟

45

في الشام

في الشام، أعرفُ مَنْ أنا وسط الزحام
يَدُلّني قَمَرٌ تلألأَ في يد امرأةٍ... عليَّ،
يدلّني حَجَرٌ توضّأ في دموع الياسمينة
ثم نام. يدلّني بَرَدَى الفقيرُ كغيمةٍ
مكسورةٍ. ويَدُلّني شِعْرٌ فُروسيٌّ عليَّ
هناك عند نهاية النفق الطويل مُحَاصَرٌ
مثلي سيُوقِدُ شمعةً، من جرحه، لتراهُ
ينفض عن عباءته الظلامَ. تدلّني ريحانةٌ
أرخت جدائلها على الموتى ونامت الرخام،
وهنا يكون الموتُ حبّاً نائماً. ويدلّني
الشعراءُ، مُنْتَحِرين كانوا أم إباحيّين،
صُوفيّين كانوا أم زَنادِقَةً،

عليَّ: إذا
اختلفتَ عرفتَ نفسكَ، فاختلفْ تجدِ
الكلامَ على زهور النور شفّافاً، ويُقرئُكَ
السماويُّ السلامَ. أنا أنا في الشامِ،
لا شَبَهي ولا شَبَحي. أنا وعدوي يداً
بيدٍ نُرفرفُ في جناحَيْ طائرٍ في الشام
أَمشي نائماً، وأنامُ في حِضْن الغزالةِ
ماشياً. لا فرقَ بين نهارها والليل
إلاَّ بعضُ أشغال الحمامِ. هناك أرضُ
الحلْم عاليةٌ، ولكنَّ السماء تسيرُ عاريةً
وتَسْكُنُ بين أهل الشام ...

46

في مصر

في مصرَ، لا تتشابهُ الساعاتُ ..
كُلُّ دقيقةٍ ذكرى تجدِّدُها طيورُ النيل.
كُنتُ هناك. كان الكائنُ البشريُّ يبتكرُ
«الإله/ الشمس». لا أحدٌ يُسمِّي نفسَهُ
أحداً. «أنا ابنُ النيل ـ هذا الاسم
يكفيني». ومنذ اللحظة الأولى تُسمِّي
نفسكَ «ابن النيل» كي تتجنَّبَ الاسْمَ
الثقيل. هناك أحياءٌ وموتى يقطفون
معاً عيونَ القُطْنِ من أرض الصعيد،
ويزرعون القمحَ في الدلتا. وبين الحيِّ
والمَيْتِ الذي فيه تناوُبُ حارسين على
الدفاع عن النخيل. وكُلُّ شيءٍ عاطفيٌّ!

فيك، إذ تمشي على أطراف روحكَ في
دهاليز الزمان، كأنَّ أُمَّكَ بِصْرَ
قد وَلَدَتْكَ زَهْرَةَ لُوتسٍ، قبل الولادة،
هل عرفت الآن نفسك؟ مصرُ تجلسُ
خلسةً مَعَ نفسها: «لا شيء يشبهني»،
وترفو معطفَ الأبديَّةِ المثقوبَ من
إحدى جهات الريح. كُنْتُ هناك. كان
الكائنُ البشريُّ يكتب حكمة الموت / الحياة.
وكُلُّ شيء عاطفيٌّ، مُقْمِرٌ . . إلاّ القصيدةَ
في التفاتتها إلى غدها تُفَكِّر بالخلود،
ولا تقول سوى هشاشتها أمام النيل...

47

أتذكّر السيّاب

أَتذكُرُ السيَّابَ، يصرخُ في الخليج سُدَىً:
«عراقُ، عراقُ، ليس سوى العراق...»
ولا يردّ سوى الصدى.
أَتذكُرُ السيَّابَ، في هذا الفضاء السومريِّ
تغلّبتْ أُنثى على عُقْم السديمِ
وأَورَثَتْنا الأرضَ والمنفى معاً
أَتذكُرُ السيَّابَ... إن الشِّعْرَ يُولَدُ في العراقِ
فكُنْ عراقيّاً لتصبح شاعراً يا صاحبي!
أَتذكُرُ السيَّابَ، لم يجدِ الحياةَ كما
تخيَّلَ بين دجلةَ والفراتِ، فلم يفكِّر
مثلَ جلجامش بأعشاب الخلودِ،
ولم يُفكِّر بالقيامة بعدها..

أَتذكَّرُ السيَّابَ، يأخذُ عن حمورابي
الشرائعَ كي يُغطِّي سَوْءةً،
ويسير نحو ضريحه متصوِّفاً.
أتذكَّرُ السيَّابَ، حين أُصابُ بالحُمّى
وأهذي: إخوتي كانوا يُعِدُّون العَشاءَ
لجيش هولاكو، ولا خَدَمٌ سواهُمْ . إخوتي!
أَتذكَّرُ السيَّابَ، لم نَحْلُمْ بما لا
يستحقُّ النَّحْلُ من قُوتٍ. ولم نحلم
بأكثرَ من يدين صغيرتين تصافحان غيابنا.
أَتذكَّرُ السيَّابَ. حدّادون موتى ينهضون
من القبور ويصنعون قيودنا.
أَتذكَّرُ السيَّابَ. إنَّ الشعرَ تجربةٌ ومنفى
توأمان. ونحن لم نحلُمْ بأكثر من
حياةٍ كالحياة، وأن نموت على طريقتنا
«عراقُ
عراقُ
ليس سوى العراق ...»

III

طريق الساحل

طريقٌ يؤدّي إلى مصرَ والشام

[قلبي ممزقٌ من الجهتين]

طريقُ المسافر بين ... وإلى نفسه

[تجتذبه ريشةٌ واهدى طائرْ]

طريقُ الصواب ... طريقُ الخطأ

[لعلّي أخطأتُ، لكنها التجربة]

طريقُ الصعود إلى شُرُفات السماء

[وأعلى وأعلى، وأبعدْ]

طريقُ النزول إلى أوّل الأرض

[إنّ السماء وهادنةٌ]

طريقُ التأمّل في الحبّ

[فالحبُّ قد يجعلُ الذئبَ نادلَ مقهى]

طريقُ السونو ورائحةُ البرتقال على البحرِ
[إنَّ الحنينَ هو الرائحةُ]

طريقُ التوابلِ والملحِ والقمحِ
[والحربِ أيضاً]

طريقُ السلامِ المُتوَّجِ بالقُدسِ
[بعد انتهاء الحروب الصليبيّة الآثمة]

طريقُ التجارة والأبجديّة والحالمينَ
[بتأليف سيرةِ بوصلةْ]

طريقُ غُزاةٍ يريدون ترميمَ تاريخهم
[بنقدٍ مُودَعٍ في البنوك]

طريقُ التحرّشِ بالميثولوجيا
[فقد تستجيبُ إلى التكنولوجيا]

طريقُ التخلّي، قليلاً، عن الإيديولوجيا
[لمصلحةِ العَوْلَمَةْ]

طريقٌ الصراع على أيِّ شيء
[ولو كان جِنْسَ الملائك]
طريقٌ الوفاق على كُلِّ شيء
[ولو كان أُنثى الحجر]
طريقُ الإخاء المُخاتِلِ
[بين الغزالِ وصيّادِهِ]
طريقٌ يدلُّ على الشيء أو عكسه
[لفرط التَّشابه بين الكِنَايةِ والاستعارة]
طريقُ الخيول التي صرعتْها المسافات
[والطائرات ...]
طريقُ البريد القديم المُسَجَّل
[كُلُّ الرسائل مُودَعَةٌ في خزائن قيصر]
طريقٌ يطول ويقصُرُ
[وَفْقَ مزاج أبي الطَّيِّب المُتنبّي]

طريقُ الإلهاتِ مُنْسحباتِ الظُّهُور

[كراياتِ جيشٍ تَقَهْقَرَ]

طريقُ فتاةٍ تُظَلِّلُ عانَتَها بالفراشة

[فاللازَوَرْدُ يُجرِّدُها من ملابسها]

طريقُ الدمى يُحيِّرُهُمْ وَصْفُ زهرةِ لوزٍ

[لأنَّ الكثافةَ شفّافةٌ]

طريقٌ طويلٌ بلا أنبياء

[فقد آثَروا الطُّرُقَ الوعرة]

طريقٌ يؤدّي إلى ظَلِّ البيتِ

[تحت حديقةِ مُسْتَوطِنة]

طريقٌ يَشُدُّ على الطريق

فيصرخُ بي شَبَحي:

إنْ

أردتَ

الوصولَ

إلى
نعسك الجامحة
فلا
تشغلْ
الطُّرقَ الواضحة!

III

لا كما يفعل السائح الأجنبي

عُشْبٌ على ما تبقّى من القلبِ،
صوتُ الشمالِ ..
ثلاثُ كنائسَ مهجورةٌ
سديمٌ على الجانبينِ،
قُرىً كنقاطٍ على أحرفٍ مُعجمةٍ،
وفتاةٌ على العشبِ تقرأُ ما
يُشبِهُ الشِّعرَ: لو كُنتُ أكبرَ،
لو كُنتُ أكبرَ لاشتشَمَ الذئبُ بي!

... لم أكُنْ عاطفياً، ولا دون جوانَ
لم أتمدَّد على العشبِ، لكني
نِمتُ في السرِّ لو كنتُ أصغرَ

لو كنتُ أَصغرَ عشرين عاماً
تشاركْتُها الماءَ والسندويشات،
وعلَّمتُها كيف تلبسُ قوسَ قُزَحْ

تثبَّتُّ، كما يفعل السائحُ الأجنبيُّ ...
معي كاميرا، ولديَّ كتابٌ صغيرٌ
يضمُّ قصائدَ في وَصْفِ هذا المكانِ
لأكثرَ من شاعرٍ أَجنبيٍّ،
أُحِسُّ بأني أنا المتكلِّمُ فيها
ولولا الفوارقُ بين القوافي لقُلْتُ:
أَنا آخري

. كنت أَتبعُ وصف المكان. هنا
شَجَرٌ زائدٌ، وهنا قمرٌ ناقصٌ
وكما في القصائد: يبكي عشبٌ
على حجرٍ يتوجَّعُ لا هُوَ حُلْمٌ
ولا هُوَ رمزٌ يدلُّ على طائرٍ وطنيٍّ،

ولكنه غيمةٌ أينعتْ ..

خطوة، خطوتان، ثلاثٌ . وَجدْتُ الربيعَ

قصيراً على المشمشيات. ما كِدْتُ أرنو

إلى زَهْرة اللوز حتى تناثَرتْ ما بينَ

غمّازتيّ. مَشَيتُ لأتبعَ ما تَرَكَتْه الطيورُ

الصغيرةُ من نَمَشٍ في القصائد!

ثُمَّ تساءلْتُ: كيف يصير المكانُ

انعكاساً لصورته في الأساطيرِ،

أو صفةً من صفات الكلامِ؟

وهل صورةُ الشيء أقوى

من الشيء؟

لولا مخيّلتي قال لي آخري:

أنتَ لستَ هنا!

لم أكن واقعياً. ولكنني لا

أصدقُ تاريخٍ «إلياذةٌ» العسكريُّ،
هُوَ الشِّعرُ، أسطورةٌ خلقَتْ واقعاً .
وتساءلْتُ، لو كانتِ الكاميرا والصحافةُ
شاهدةً فوقَ أسوارِ طروادةَ الآسيوية،
هل كان «هوميروس» يكتبُ غيرَ الأوديسة؟!

... أُمسِكُ هذا الهواءَ الشهيَّ،
هواءَ الجبالِ، بكلتا يديَّ
وأقضمُهُ مثلما يقضمُ الماعزُ الجبليُّ
أعالي الشُّجيرات،
أمشي، أُعرِّفُ نفسي إلى نفسها:
أنتِ، يا نفسُ، إحدى صفاتِ المكان

ثلاثُ كنائسَ مهجورةٌ
مآذنُ مكسورةٌ،

سنديانٌ على الجانبين،
قُرىً كنقاط على أحرفٍ مُجيئة،
وحنانة على العشب تسأل طيفاً:
لماذا كبرتَ ولم تنتظرني
يقول لها: لم أكنْ حاضراً
عندما ضاق ثوبُ الحرير بتُفّاحتيّ
فغنّي، كما كنتِ قبل قليل، تُغنّين،
لو كُنتُ أكبر، لو كنتُ أكبرَ...!

أمّا أنا، فسأدخلُ في شجر التوتِ
حيث تُحوّلني دُودةُ القزِّ خيطَ حريرٍ،
فأدخلُ في إبرة امرأةٍ من
نساء الأساطير،
ثم أطير كشالٍ مع الريح...

٣٧

بيت من الشعر/
بيتُ الجنوبي

[إلى ذكرى أمل دنقل]

واقفاً معهُ تحت نافذةٍ،
أتأمَّلُ وشمَ الظلال على
شرفةِ الأَبديةِ، قُلْتُ له:
قد تغيَّرتَ يا صاحبي . وانتظرتْ
بي هِيَ مزاجيةُ الموت تعلو
ولكنها لا تحرِّكُ صرختكَ الخاطفةْ

□

قال لي: عشتُ قرب حياتي
كما هيَ،
لا شيءَ يُثْبِتُ أَنّي حيٌّ
ولا شيءَ يثبتُ أَني مَيْتٌ

ولم أتدخَّل بما تفعلُ الطيرُ بي
وبما يحملُ الليل بي
مرضى العاطفة

■

ألعيابُ يرفُ كزوجيْ حمامٍ على النيلِ...
يُنْبِئُنا باختلافِ الخُطى حول فعل المُضارعِ.
كُنّا معاً، وعلى حِدَةٍ، نَسْتَحِثُ غداً
غامضاً. لا نريدُ من الشيءِ إلاَّ
شفافيّةَ الشيءِ: حقِّقْ تَرَ الوردَ
أسودَ في الضوءِ، واحلُمْ تَرَ الضوءَ
في العتمة الوارفةْ...

■

الجنوبيُّ يحفظُ دربَ الصعاليكِ عن
ظهرِ قلبٍ، ويُشبِهُهُم في سليقتهم
وارتجالِ المدى. لا «هناك» له،

لا «هنا»، لا عناوينَ للفوضويِّ
ولا مِشْجَبٌ للكلام. يقولُ: النظامُ
احتكامُ الصدى للصدى. وأنا صوتُ
نفسي المشاع: أنا هُوَ أنتَ ونحنُ أنا.
ونامَ على دَرَجِ الفجر: هذا هو
البيتُ، بيتٌ من الشعر، بيتُ الجنوبيِّ.
لكنّهُ صارمٌ في نظام قصيدته. صانعٌ
بارعٌ يُنْقِذُ الوزنَ من صَخَب العاصفةْ

* * *

الغيابُ على حاله. قمرٌ عابرٌ فوق
خُوفُو يُذَهِّبُ سَقْفَ النخيل. ومذيعةٌ
تملأُ الكاميرا بالغياب، وتسألُ: ما
الساعةُ الآن؟ قال لها: الساعةُ
الآنَ عشرُ دقائقَ ما بعد سبعةْ

آلاف عامٍ من الأبجدية، ثم تنهّد:
مصرُ الشهيةُ، مصرُ البهيةُ مشغولةٌ
بالخلود. وأنا أنا ... مريضٌ بها، لا
أفكّرُ إلاّ بصحتها، وبكسرة خبزِ
غدي الناشفةْ

□

شاعرٌ، شاعرٌ من سلالة أهل
الخسارة، وابنٌ وفيٌ لريف المساكين،
قرآنهُ عربيٌّ، ومزمورهُ عربيٌّ ، وقُربانهُ
عربيٌّ. وفي قلبه زَمَنانِ غريبانِ،
يبتعدان ويقتربان. ولا يكفُّ
عن الاعتذارِ: «نسيتُكِ، لا تنتظريني»،
وأمشي بجرّ مراكبَ فرعونَ نحو الشمس:
«انتظرتُكَ، لكن تأخرتَ». قلتُ له:

أين كُنْتَ إذاً؟ قال لي. كُنْتُ
أبحث عن خاصرتي في جناحيْ سُنُونُوَةٍ
خائفةٍ ...

□

ألجنوبيُّ يحملُ تاريخَهُ بيديْهِ، كحفنة قمحٍ
ويمشي على نفسه واثقاً من ينبوع
السنابل. إنَّ الحياةَ بديهيّةٌ... فلماذا
نعثّرها بالأساطير؟ إنَّ الحياة حقيقيةٌ
والصعابُ هي الزائفةْ

■

قال لي في الطريق إلى ليله.
كُلّما قُلْتُ: كلاّ. تجلّى ليَ اللهُ
حريّةً . وبلغتُ الرضا الباطنيّ عن
النفس. قلتُ. وهل يُصْلِحُ الشعرُ

ما أفسد الدهرُ فينا وجنكيز خان
وأحفادُهُ العائدون إلى النهرِ؟
قال: على قدرِ حُلْمكَ تتَّسع الأرضُ،
والأرضُ أمّ المخيّلة النازفةْ

□

قال في آخر الليل: خذني إلى البيت،
بيتِ المجازِ الأخيرِ ...
فإني غريبٌ هنا يا غريبُ،
ولا شيءَ يُفرحني قربَ بيتِ الحبيبِ
ولا شيءَ يجرحني في «طريق الحبيب» البعيدةِ
قلتُ: وماذا عن الروح؟
قال: مُسْتَعْجِلٌ قُرْبَ حياتي
فلا شيءَ يُثْبتُ أنّي ميتٌ
ولا شي يثبتُ أنّي حيٌّ

ستحيا، كما هي
حائرة آسفة . .

٧

كحادثة غامضة

في دار بابلو نيرودا، على شاطىء
الباسيفيك، تذكّرتُ يانيس ريتسوس.
كانت أثينا ترحّبُ بالقادمين من البحرِ،
في مسرحٍ دائريٍّ مُضاءٍ بصرخة ريتسوس:
«آهِ فلسطينُ،
يا اسْمَ الترابِ،
ويا اسْمَ السماءِ،
سَتَنْتَصرين ...!»
وعانقني، ثمّ قدَّمني شاهراً شارةَ النصرِ:
«هذا أخي».
فَشَعَرتُ بأنّي انتصرتُ، وأنّي انكسرتُ
كقطعة ماسٍ، فلم يَبْقَ منّي سوى الضوءِ/

■

في مطعم دافئ، نتبادلُ بعضَ الحنين
إلى بلدَينا القديمين، والذّكرياتِ عن
الغد. كانت أثينا القديمةُ أجملَ.
أَمّا يبوسُ، فلن تتحمّل أكثر. فالجنرالُ
استعار قناعَ النبيّ ليبكي ويسرق
دمعَ الضحايا: «عزيزي القتيلُ!
قتلتُكَ من دون قصدٍ، عدوّي العزيزُ،
لأنكَ أزعجتَ دبّابتي»!

■

قال ريتسوس: لكنّ اسبرطةَ انكسرتْ
في مهبِّ الحنانِ الأثينيّ. إنَّ الحقيقةَ
والحقَّ صنوان ينتصران معاً يا أخي
في القصيدة! للشعر جسرٌ على
أمسِ والغد. قد يلتقي بِعةُ الشَّعب

المثقفون مع الخارجين عن الميثولوجيا.
وقد يشربون النبيذ معاً.

قلتُ: ما الشعرُ؟ ... ما الشعرُ في
آخر الأمر؟
قال: هو الحدثُ الغامضُ، الشعرُ
يا صاحبي هو ذاك الحنينُ الذي لا
يُفسَّرُ، إذ يجعلُ الشيءَ طيفاً، وإذْ
يجعلُ الطيفَ شيئاً. ولكنه قد يُفسِّرُ
حاجتَنا لاقتسامِ الجمالِ العموميّ. /

□

لا بحر في بيته في أثينا القديمة،
حيث الإلهاتُ كنَّ يُدِرْنَ شؤون الحياة
مع البشر الطيبين، وحيث إلكترا الفتاةُ
تناجي إلكترا العجوزَ وتسألها: هل

أنا أنت حقّاً؟

■

ولا نيلَ في بيته الضيّقِ المتقشّفِ

فوق سطوحٍ تطلُّ على الغابة المعدنيّةِ.

لوحاتُهُ كالقصائد مائيّةٌ، وعلى أرض

صالونه كُتُبٌ رُصفتْ كالحصى المُنتقى

قال لي، عندما يحزنُ الشعرُ أرسمُ

فوق الحجارة نقشَ الفخاخ لصَيْدِ القَطا.

قُلْتُ: من أين يأتي إلى صوتكَ

البحرُ، والبحر مشتعلٌ عنك يا صاحبي؟

قال: من جهة الذكريات، وإن

كنتُ لا أتذكّر أنّي كُنْتُ صغيراً.

وُلدتُ ولي أخَوان عدوّان:

سجني ودائي.

ـ وأين وجدتَ الطفولةَ؟

ـ في داخلي العظمي. أنا الطفلُ

والشيخُ. طفلي يُعلِّمُ شيخي المجازَ،

وشيخي يُعلِّم طفلي التأمُّلَ في خارجي،

خارجي داخلي

كُلّما ضاق سجني تورّعْتُ في الكُلّ،

واتّسعتْ لغتي مثل لؤلؤةٍ كُلّما عمّقتني

الليل ساعاتُ/

□

وقلتَ: تعلّمتُ منكَ الكثيرَ. تعلّمتُ

كيف أدرّبُ نفسي على الانشغالِ بحبِّ

الحياةِ، وكيف أجدّفُ في الأبيضِ

المتوسّطِ بحثاً عن الدربِ والبيتِ أو

عن ثُنائيّةِ الدربِ والبيتِ/

لم يكترثْ للتحية. قدّم لي قهوةً،
ثم قال: سيرجع أوديسيُكم سالماً،
سوف يَرجِعُ...!

□

في دار بابلو نيرودا، على شاطئ
الپاسيفيك، تذكّرتُ يَنيس ريتسوس
في بيته. كان في ذلك الوقت يدخلُ
إحدى أساطيره، ويقول لإحدى الإلهات:
إنْ كان لا بُدَّ من رحلةٍ، فلتكنْ
رحلةً أبديةً!

VI

ليس للكردي إلاّ الريح

[إلى سليم بركات]

يتذكّرُ الكرديُّ، حين أزورُهُ، غَدَهُ...

فيُبعِدُهُ بمِكْنسة الغبارِ: إليكَ عنّي!

فالجبالُ هي الجبالُ. ويشربُ الفودكا

لكي يُبقي الخيالَ على الحياد: أنا

المسافرُ في مجازي، والكراكيُّ الشقيّةُ

إخوتي الحمقى. وينفُضُ عن هُويَّتِهِ

الظلالَ: هُويّتي لُغتي. أنا... وأنا.

أنا لغتي. أنا المنفيُّ في لغتي.

وقلبي جمرةُ الكُرديِّ فوق جبالِهِ الزرقاءِ.../

يفُوتنا هوامِشُ في قصيدته،

كَكُلِّ مدينةٍ أخرى، على درّاجةٍ
حمل الجهاتِ، وقال: أَسْكُنُ أينما
وَقَعَتْ بيَ الجهةُ الأخيرةُ. هكذا
اختار الفراغَ ونام. لم يَحْلُمْ
بشيءٍ مُنْذُ حَلَّ الحِبْرُ في كلماتِهِ،
[كلماتُهُ عضلاتُهُ. عضلاتُهُ كلماتُهُ]
فالحالمون يُقَدِّسون الأمسَ، أَوْ
يَرْشُون بوّابَ الغدِ الذهبيّ ...
لا غَدَ لي ولا أمسٍ. الهُنَيْهَةُ
ساحتي البيضاءُ . /

منزلُهُ نظيفٌ مثلُ عينِ الديك ...
منسيٌّ كخيمة سيِّدِ القوم الذين
تبعثروا كالريش. سَجّادٌ من الصوف
المُجَعَّد. مُعْجَمٌ مُتآكلٌ. كُتُبٌ مُجلَّدةٌ

على عَجَلٍ. مخدّاتٌ مطرّزةٌ بإبرة
خادم المقهى. سكاكينٌ مُجَنَّحةٌ تذبح
الطير والحرير. فيديو للإباحيات.
باقاتٌ من الشوك المُعَادِي للبلاغة.
شُرْفَةٌ مفتوحةٌ للاستعارة: ها هنا
يَتَبَدَّلُ الأتراكُ والإغريقُ أدوارَ
الشتائم. تلك تَسْلِيَتي وتَسْلِيَةُ
الجنود الساهرين على حدود فُكاهةٍ
سوداء .../

ليس مسافراً هذا المسافرُ، كيفما اتَّفَقَ ...
الشمالُ هو الجنوبُ، الشرقُ غربٌ
في السراب. ولا حقائبَ للرياح،
ولا وظيفة للغبار. كأنه يُخفي
الحنينَ إلى سواهُ، فلا يُغنّي ... لا

يمشي حين يدخلُ ظلَّه شجرُ الأكاشيا،
أو يبلُّ شعرَهُ مطرٌ خفيفٌ.
بل يُناجي الذئبَ، يسألُه النزالَ:
تعالَ يا ابن الكلب نقرعْ طبلَ
هذا الليل حتى يوقظ الموتى. فإنَّ
الكُرْدَ يقتربون من نار الحقيقة،
ثم يحترقون مثل فراشة الشُعراء/

يعرفُ ما يريد من المعاني. كُلُّها
عَبَثٌ. وللكلمات حيلتُها لصيد نقيضها،
عبثاً. يفضُّ بكارةَ الكلمات ثم يعيدها
بكراً إلى قاموسه. ويَسُوسُ خيلَ
الأبجدية كالخراف إلى مكيدته، ويحلقُ
عانةَ اللُغةِ: انتقمتُ من الغياب.

فَعلْتُ ما فعل الضبابُ بإخوتي،
وشَوَّشتُ قلبي كالطريدة. لن أكون
كما أُريد، ولن أُحبَّ الأرض أكثر
أو أَقلَّ من القصيدة. ليس
للكرديِّ إلاّ الريح تسكنُهُ ويسكُنُها،
وتُدْمِنُهُ ويُدْمِنُها، لينجو من
صفات الأرض والأشياء ...!

كان يخاطب المجهولَ: يا ابني الهواءَ!
يا كبش المتاه السرمديّ. إذا رأيتَ
أباك مشنوقاً فلا تُنْزِلْهُ عن حبل
السماء، ولا تُكَفِّنْهُ بقطن نشيدك
الرعويِّ. لا تدفنه يا ابني، فالرياحُ
وصيّةُ الكرديِّ للكرديِّ في منفاه،
يا ابني... والنسورُ كثيرةٌ حولي

وحولك في الأناضول الفسيح،
جدرتي سريّةٌ رمزيّةٌ، فَخُذ الهباء
إلى مصادره، وجُرَّ سماءك الأولى
إلى قاموسك السحريِّ. واحذرْ
لدغةَ الأملِ الجريحِ، فإنه وَحْشٌ
خرافيٌّ وأنت الآن . أنت الآن
حُرٌّ، يا ابن نفسك، أنت حُرٌّ
من أبيك ولعنة الأسماء../

باللغة انتصرتَ على الهُويّةِ،
قُلْتُ للكرديِّ، باللغة انتقمتَ
من الغياب
فقال: لن أمضي إلى الصحراءِ
قُلْتُ: ولا أنا ...

ونظرت نحو الريح/

ـ جئتُ مساء

ـ عمت مساءً!

صدر للشاعر

- أوراق الزيتون
- عاشق من فلسطين
- آخر الليل
- حبيبتي تنهض من نومها
- العصافير تموت في الجليل
- أحبك، أو لا أحبك
- محاولة رقم ٧
- تلك صورتها وهذا انتحار العاشق
- أعراس
- مديح الظل العالي
- حصار لمدائح البحر
- هي أغنية، هي أغنية
- ورد أقل

- مأساة النرجس، ملهاة الفضة
- أرى ما أريد
- أحد عشر كوكباً
- ديوان محمود درويش (جزآن)

وعن
«رياض الريس للكتب والنشر»

لماذا تركت الحصان وحيداً

الطبعة الأولى كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥

الطبعة الثانية أيلول/ سبتمبر ١٩٩٥

الطبعة الثالثة شباط/ فبراير ٢٠٠١

سرير الغريبة

الطبعة الأولى كانون الثاني/ يناير ١٩٩٩

الطبعة الثانية شباط/ فبراير ٢٠٠٠

جدارية

الطبعة الأولى حزيران/ يونيو ٢٠٠٠

الطبعة الثانية شباط/ فبراير ٢٠٠١

حالة حصار
الطبعة الأولى نيسان/ أبريل ٢٠٠٢
الطبعة الثانية حزيران/ يونيو ٢٠٠٢

محمود درويش

لا تعتذر عمّا فعلت

«أمشي كأنّي واحدٌ غيري. وجرحي وردةٌ
بيضاءُ إنجيليّةٌ. ويدايَ مثل حمامتين
على الصليب تحلّقان وتحملان الأرضَ
لا أمشي، أطيرُ، أصيرُ غيري في
التجلّي. لا مكانَ ولا زمانَ. فمن أنا؟
أنا لا أنا في حضرة المعراج. لكنّي
أفكّرُ: وحدهُ، كان النبيّ محمّدٌ
يتكلّم العربيّةَ الفصحى. «وماذا بعد؟»
ماذا بعد؟ صاحت فجأة جنديّةٌ:
هُوَ أنتَ ثانيةً؟ ألم أقتلْكَ؟
قلتُ: قتلتني... ونسيتُ، مثلك، أن أموت».

من قصيدة «في القدس»

ISBN 9953-21-152-3
9 789953 211527